الوساطـــــــة

بين

المتنبى وخصومه

للجرجانى

٢٩٠ – ٣٦٦ هـ

obeikandl.com

تعريف بالمؤلف :

هو القاضى أبو الحسن على بن عبد العزيز الجرجانى الفقيه الشافعى ، كان فقيهاً أديباً شاعراً ، ولد ديوان شعر ، وهو القائل :

يقولون لى فيك انقباض وإنما رأوا رجلا عن موقف الذل أحجما (١٨٤)

ويوقل الثعالبى عنه : هو فرد الزمان ونادرة الفلل ، وإنسان حدقة العلم ، وقية تاج الأدب ، وفارس عسكر الشعر ، يجمع خط ابن مقلة إلى نثر الجاحظ ونظم البحترى ، وقد كان فى صباه خلف الخفير فى قطع الأرض وتدويج بلاد العراق والشام وغيرها ، واقتبس من أنواع العلوم والآداب ما صار به فى العلوم علماً ، وفى الكمال عالماً ، وأوردك مقاطيع كثيرة من الشعر ، فمن ذلك قوله :

قد برح الحب بمشتاقك فأوله أحسن أخلاقك

لا تجفه وارع له حقه فإنه آخر عشاقك (١٨٥)

ويوقل صاحب الشذرات كا قاضياً بجرجان ثن بالرى ، وفيه يقول الصحاب ابن عباد :

إذا نحن سلمنا لك العلم كله فدع هذه الألفاظ تنظم شذورها (١٨٦)

وروى صاحب الشذرات من أشعاره قوله :

لأرى الناس من داناهم هان عندهم ومن أكرمته عزة النفس أكرما

---

١٨٤ ـ طبقات الفقهاء للشيرازى ٣٥ .

١٨٥ ـ وفيات الأعيان لابن خلكان ٣ / ٢٧ وما بعدها ـ دار صار بيروت سنة ١٩٧٠ ـ ويتيمة الدهر للثعالبى ٤ / ٣ .

١٨٦ ـ شذرات الذهب فى خبر من ذهب للعماد الحنبلى ٣ / ٥٦ .

obeikandi.com

وما كل برق لاح لـــى يستفزنـــى ول كل من لاقبت أرضاه منعما

وإنى إذا ما فاتنى الأمر لـــم أبـت أقلب كفـــى إثـــره متندمـــا

ولم أفض حق العلم إن كان كلما بـــدا طمـــع صيرته لى سلمـــا

إذا قيل هذا منهل قلت قد أرى ولكن نفس الحر تحتمل الظما (١٨٧)

وطاف فى صباه الأقاليم ولقى العلماء ، وقـــبس العلـــوم والآداب ، والتقـــى بمشايخ وقته ، وعلماء عصره ، وسمع الحديث وترقى فى العلوم حتى أقر له الناس بالتفرد . ومن جيد شعره قوله :

ولو أن أهل العلم صانوه صانهم ولو عظموه فى النفوس لعظما

ولكن أهانوه فهان ودنســـــوا محياه بالأطماع حتى تجهمـــا

ومن مستجاد شعره قوله :

ما تطعمت لذة العيش حتى صرت للبيت والكتاب جليسا

ليس عندى شىء ألذ من ال علم فما أبتغى سواه أنيسا(١٨٨)

كما كان القاضى أبو الحسن على بن عبد العزيز بن الحسن الجرجانى عالمـــا باللغة أخذ عن أبى عبيدة وروى عنه على بن إبراهيم القطان[١٨٩] .

وكان الشيخ عبد القاهر الجرجانى قد قرأ عليه ، واغترف من بحره ، وكـــان إذا ذكره فى كتبه تبخبخ به وشمخ بأنفه بالانتماء إليه[١٩٠] .

مؤلفاته :

للقاضى الجرجانى عدة تصانيف ، وكثرة كاثرة من التآليف منها :

---

[١٨٧] - ذاته ٥٧ . بتصرف .

[١٨٨] - راجع البداية والنهاية لابن كثير الدمشقى ٣٣١ ، ٣٣٢ ط الخامسة ١٩٨٣ م – ١٤٠٤ ه – المعارف بيروت – لبنان .

[١٨٩] - نزهة الألباء ١٤٧ .

[١٩٠] - معجم الأدباء لياقوت الحموى ١٤/١٤ تبخبخ الرجل : أى قال : بخ بخ .

obeikandi.com

كتاب تفسير القرآن المجيد ، وكتاب تهذيب التاريخ ، وكتاب الوساطة بين المتنبى وخصومه ، وفى هذا الكتاب يقول بعض أهل " نيسابور " :

أيا قاضيا قد دنت كتبه وإن أصبحت داره شاحطة

كتاب الوساطة فى حسنه لعقد معاليك كالواسطة[١٩١]

وكان له ديوان شعر جمع بين العذوبة والجزالة ، وتترقرق فيه شمائله السمحة الرصينة[١٩٢] .

مولده ووفاته :

ولد القاضى أبو الحسن على بن عبد العزيز الجرجانى فى جرجان سنة تسعين ومائتين ، وكانت الدولة الإسلامية قد بلغت نضجها العلمى وعرف له الصاحب فضله فولاه قضاء الرى ، ولم يزل أبو الحسن يتقدم إلى أن ذكر فى الدنيا ، وتوفى فى سلخ صفر سنة ست وستين وثلاثمائة بنيسابور وعمره ست وسبعون سنة[١٩٣] . وصلى عليه القاضى أبو الحسن عبد الجبار ابن أحمد ، وحضر الوزير الحضير مجد الدولة وأبو الفضل العارض راجلين[١٩٤] .

وفى البداية والنهاية للدمشقى : أنه توفى سنة اثنين وتسعين وثلاثمائة[١٩٥] وفى معجم الأدباء مات بالرى يوم الثلاثاء بست بقين من ذى الحجة سنة اثنتين وتسعين وثلاثمائة وهو قاضى القضاة بالرى حينئذ[١٩٦] .
ويؤيد ذلك القول صاحب تاريخ أدب اللغة العربية[١٩٧] .

---

١٩١ - معجم الأدباء .
١٩٢ - راجع وفيات الأعيان لابن خلكانز
١٩٣ - وفيات الأعيان لابن خلكان – تحقيق الدكتور / احسان عباس ٣/ ٢٨١ .
١٩٤ - تاريخ النيسابوريين بالحاكم .
١٩٥ - البداية والنهاية لابن كثير ١١ / ٢٣٢ وما بعدها .
١٩٦ - معجم الأدباء لياقوت الحموى ١٥ .
١٩٧ - تاريخ أدب اللغة العربية لجرجى زيدان ٢ / ٣٩٢ .

obeikandl.com

ويذكر صاحب " النزهة " أنه توفى فى سنة سبع وثمانين ومائتين[١٩٨] وذكر صاحب الشذرات[١٩٩] فقال : " وطاف فى صباه الأقاليم " .

ولقى العلماء وصنف كتاب " الوساطة بين المتنبى وخصومه " . ومات بنيسابور سنة ست وستين وثلاثمائة ، وحمل تابوته إلى جرجان[٢٠٠] ودفن بها وبذلك يوافق ما أثبته الحاكم فى تاريخه وهو أثبت الآراء وأصحها .

بين يدى الكتاب :

وصل النقد فى القرن الرابع إلى أوج عظمته ، واتسعت آفاقه ، واعتمد أول ما اعتمد على الذوق الأدبى فى الفهم والتحويل للنص الأدبى مستندا فى ذلك أيضا إلى النطق الصائب ، والفكرة السديدة[٢٠١] واختفى أو كاد من حلبته اللغويون والنحاة ، وحمل رايته الأدباء ، وكان نقدهم متميزا بالاستقصاء ، وشمول الفكرة والموازنة العامة بين الشعراء ، كما أنهم عنوا عناية فائقة بدراسة الشعر ، وتقدير رجاله ، وتخاصموا فيهم ، فهذا يختصر لأبى تمام ، وذاك يتشيع للبحترى ، وآخر يرفع من قدر المتنبى ، وينسبون كل فضل إليه فى الشعر . وفريق ينتقص من قدره ويهون من شأنه ، ويتهمونه بالمعاظلة والتعقيد ، وسارت تلك الأحاديث فى كل مكان ، وكان من بين هؤلاء : أبو الفرج الأصفهانى ، وابن العميد الصاحب بن عباد ، وأبو على الحاتمى وابن لنكك البصرى والآمدى والجرجانى .

بيد أن الجرجانى كان أصرح هؤلاء جميعا فى نقده ، كما كان أوسعهم أفقا ، حيث أن ظهور المتنبى شغل الناس وملأ ذكره الأسماع وطبقت شهرته الآفاق ، وذكر سيرته القاضى والدانى ، وحسبنا فى ذلك المقام ما ذكره ابن رشيق القيروانى حيث يقول : " واختصم الأدباء فى شعره " وقطعوا الأزمان المتواصلة فى تحديد

---

[١٩٨] - نزهة الأدباء لابن الأنبارى ص ١٤٧ .
[١٩٩] - شذرات الذهب فى أخبار من ذهب للعماد الحنبلى جـ ٣ ص ٥٦ وما بعدها .
[٢٠٠] - جرجان مدينة عظيمة من ناحية خراسان .
[٢٠١] - راجع تاريخ النقد الأدبى للأستاذ / طه أحمد إبراهيم ص ١٤٧ بتصرف .

أغراضه ، وتعصب له فريق وغض من شأنه فريق ، وكان من الذين غضوا من شعره الصاحب بن عباد ، وألف فيه رسالة سماها " الكشف عن مساوى المتنبى " أقامها على التنقص منه ، والحط من مقداره . وقد ذكر الرواة أن الصاحب كان هين المكانة حين وفد المتنبى على ابن العميد ، وكان يود لو قصده أبو الطيب ، فلما تجاهله جزع وسخط ، وألف فيه هذه الرسالة ، وذكر فيها من شعر المتنبى أمثلة للغموض والتعقيد والركاكة وقبح الألفاظ واستكراهها ، وكان أبو الفتح عثمان بن جنى من ناحية أخرى يرفع من مقداره ويشيد من ذكره ، وأصبح لكل منهما أشياع[٢٠٢]

وفى خضم هذه الأحداث ألف القاضى على بن عبد العزيز الجرجانى فى كتابه : " الوساطة بين المتنبى وخصومه " . يقول الثعالبى : ولما عمل الصاحب رسالته المعروفة فى إظهار " مساوىء المتنبى " عمل القاضى أبو الحسن كتابه : الوساطة بين المتنبى وخصومه فى شعره ، فأحسن وأبدع وأطال وأطاب ، وأصاب شاكلة الصواب واستولى على الأمر فى فصل الخطاب ، وأعرب عن تبحره فى الأدب وعلم العرب ، وتمكنه من جودة الحفظ ، وقوة النقد ، فسار الكتاب مسير الرياح ، وطار فى البلاد ، بغير جناح ، وقال فيه بعض العصريين من أهل نيسابور:

أيا قاضيا قد دنت كتبه وإن أصبحت داره شاحطة

كتاب الوساطة فى حسنه لعقد معاليك كالواسطة[٢٠٣]

ويقول حاجى خليفة : " أما القاضى أبو الحسن فإنه ادعى التوسط بين خصوم المتنبى ومحبيه ، وذكر أن قوما مالوا إليه حتى فضلوه فى الشعر على جميع أهل زمانه – وقوما لم يعدوه من الشعراء وازدروه غاية الازدراء حتى قالوا ك إنه لا

---

[٢٠٢] - العمدة لابن رشيق القيروانى .

[٢٠٣] - راجع يتيمية الدهر للثعالبى .

ينطق إلا بالهوى ، ولم يتكلم إلا بالكلمة العوراء ، ومعانيه كلها مسروقة ، فتوسط بين الخصمين ، وذكر الحق من القولين "[٢٠٤] .

وليس كتاب الوساطة مختصا بشعر المتنبى كما يفهم من عنوانه ، بل تعرض للأصول الأدبية المعروفة فى عصره ، كما حلل شعر القدامى والمحدثين ، وذكر كثيرا من معايبهم ومحاسنهم وأبان ما شاع فيها من تعقيد وغموض وسرقة واستعارة حسنة كانت أو رديئة ، ثم تعرض للبيئة وما لها من أثر فى الشعر ، وما للبداوة من جفوة فى الطبع ، وما ينشأ عن الحضارة من رقة فى اللفظ ، وسهولة فى العبارة ، وعذوبة المعانى ومتانة التركيب ، ثم عرض بعد ذلك لخصوم المتنبى وأنصاره ، والمعانى المأخوذة أو المبتكرة ، تعرض لذلك كله بأسلوب سلس ، وعبارة سهلة ، واضحة كما يتبين لك أثناء مطالعتك الكتاب .

[٢٠٤] - كشف الظنون عن أسامى العلوم والفنون لحاجى خليفة .

obeikandl.com

نماذج من الكتاب

النموذج الأول : السرقات الشعرية :

لست تعد من جهابزة الكلام ، ونقاد الشعر ، حتى تميز بين أصنافه وأقسامه ، وتحيط علماً برتبه ومنازله ، وتفصل بين السرق والغصب ، وبين الإغارة والاغتلاس ، وتعرف الإلمام من الملاحظة ، وتفرق بين المشترك الذى لا يجوز ادعاء السر فيه ، والمبتذل الى ليس له أحد أولى به ، وبين المختص الذى حازه المبتدئ فملكه وأحياه السابق فاقتطعه ، فصار المعتدى مختلساً سارقاً ، والمشارك له محتذياً تابعاً وتعرف اللفظ الذى يجوز أن يقال فيه : أخذ ونقل ، والكلمة التى يصح أن يقال فيها : هى لفلان دون فلان [٢٠٥] .

فمتى نظرت فرأيت أم تشبيه الحسن بالشمس والبدر ، والجواد بالغيث والبحر والبليد البطيئ بالحجر والحمار ، والشجاع الماضى بالسيف والنار ، والصبر المستهان بالمخبول فى حيرته ، والسليم فى سهره ، والسقيم فى أنينه وتألمه أمور متقررة فى النفوس متصورة للعقول ، يشترك فيها الناطق والأبكم والفصيح والأعجم والشاعر والمفحم حكمت بأن السرقة عنها منتفية ، والأخذ بالاتباع مستحيل ممتنع وفصلت بين ما يشبه هذا ويباينه ، وما يلحق به وما يتميز عنه ، ثم اعتبرت ما يصح فيه الاختراع والابتداع ، فوجدت منه مستفيضاً متداولاً متثاقلاً لا يعد فى عصرنا مسروقاً ، ولا يحسب مأخوذاً ، وإن كان الأصل فيه لمن انفرد به ، وأوله

[٢٠٥] - الوساطة بين المتنبى وخصومه للمرجانى ص ١٨٣ .

obeikandi.com

الذى سبق إليه كتشبيه الطلل المجبل بالخط الدارس وبالبرد النهج ، والوشم فى المعصم والظعن : المتحملة بالنخل وعلائقها بأعذاق البسر والفحل بالفدن المشيب [٢٠٦] والظليم المهيج بأحقب [٢٠٧] يسوق أتنه ، وكوصف الحمول وموران الآل بها ، وذم الغراب والصرد ، والسانح ، البارح ، وسؤال المنزل عن أهله ، والتفجع لمن استبدل بعد ساكنه ولوم النفس على بكاء الدار ، واستعطاف العقل ، واستيطاء الصبر وتحسينه تارة وتقبيحه أخرى ، وتشبيه الفرس باللقوة [٢٠٨] والظبى يشهاب قذف ، والعقاب بالدلو التى خانها الرشاد ، وكوصف الغيث بالعموم والتطبيق ، واقتلاع الدوح ، والتفريق الوحش ؛ وتشبيه دفعه بعط المزاد ، وحل العزال ، ووصف البرق بخطف الأبصار ، وسرعة اللمح ، وأنه كالقبس من النار ، وكالحريق المتضرم ، وكمصباح الراهب .

هذه بأعيانها دون غيرها ، ولم أوردها إلا دلائل على أمثالها ، فإذا اعتبرتها تصنفت لك صنفين ، إما مشترك عام الشركة لا ينفرد أحد منهم بسهم لا يساهم عليه ولا يختص بقسم لا ينازع فيه ، فإن حسن الشمس والقمر ومضاء السيف وبلادة الحمار وجودة الغيث ، وحيرة المخبول ونحو ذلك مقرر فى البداية وهو مركب فى النفس تركيب الخلقة ، وصنف سبق المتقدم إليه ففاز به ، ثم قدومك بعده فكثر واستعمل ، فصار لأول مرة فى الجلاء والاستشهاد والاستفاضة على ألسن الشعراء فحمى نفسه عن السرق ، وأزال عن صاحبه مذمة الأخذ ، كما يشاهد ذلك فى تمثيل الطلل بالكتاب والبرد ، والفتاة بالغزال فى جيدها وعينيها ، والمهاة فى حسنها وصفائها ، ومتى شئت أن ترى ما وصفته عيانا ، وتعلمه يقينا فاعترض أول مما غفل تستقبله ، وأعجمى جلف تلقاه ثم سله البرق فإنه يؤدى إلى معنى قول عنترة [٢٠٩]:

---

[٢٠٦] - الفدن : القصر المرتفع .
[٢٠٧] - الأحقب : حمار الوحش الذى فى بطنه بياض .
[٢٠٨] - اللقوة بفتح اللام وكسرها : السريعة اللقاح من ناقة وعقاب والمرام : الاضطراب . والسانح : ما أتاك عن يمينك ، والبارح : ما أتاك عن يسارك .
[٢٠٩] - الوساطة بين المتنبى وخصومه ص ١٨٤ .

ألا يا ما لذا البرق اليمانى يضئ كأنه مصباح بان

وهذا البيت غير موجود فى الديوان .

وإن لم يذكر لك البان لجهله بمادة العرب فى الاستصباح به ، ولأنه لم يعرف عنه ما عرفه عنترة ، ومضى امرؤ القيس فى قوله :

يضئ سناه أو مصابيح راهب أمال السليط بالذبال المفتل (٢١٠)

وهيهات أن يعترض لك الأديب الفطن لقول عامر الثقفى :

كأن ريقه لما علا سبطاً أقراب أبلق يتقى الخيل رماح

وقول آخر :

ونرى البرق عارضاً مستطيراً مرح البلق حلن فى الإجلال

إلا عن روية كثيرة ، أو فكر طويل ، ولو سمعت قائلا يقول : إن فلانا الشاعر أخذ عن فلان قوله : لا مرحبا بالشيب ، وحبذا الشباب ، وكيف لو عاد ، ويا أسفى لفراق الأحبة ، وما لذذت العيش بعدهم ، وفاضت عينى صبابة لذكرهم . لحكمت بجهله ، ولم تشك فى غفلته ، وقد يكون فى هذا الباب ما تتسع له أمة وتضيق عنه أخرى ، ويسبق إليه قوم دون قوم لعادة أو عهد ، أو مشاهدة أو مراس كتشبيه العرب الفتاة الحسناء بتريكة النعامة ، ولعل فى الأمم من لم يرها ، وحمرة الخدود بالورد والتفاح، وكثير من الأعراب من لم يعرفهما ، وكأوصاف الفلاة ، وفى الناس من لم يصحر وسير الإبل ، زكثير منهم من لم يركب ، ويتفاضل متنازعو هذه المعانى بحسب مراتبهم من العلم بصنعة الشعر فتشترك الجماعة فى الشىء المتداول ، وينفرد أحدهم بلفظة تستعذب ، أو ترتيب يستحسن أو تأكيد يوضع

---

٢١٠ - راجع الديوان ص ٤١ ورواية الديوان هكذا :
يضئ سناه أو مصابيح راهب أهان السليط بالذبال المفتل
السليط : الزيت . الذبال : جمع ذبالة : وهى الفتيلة .

obeikandi.com

موضعه أو زيادة اهتدى لها دون غيره ، فيزيل المشترك المبتذل فى صورة المخترع[٢١١] كما قال لبيد :

وجلا السيول عن الطلول كأنها زبر بجد متونها أقلامها(٢١٢)

فأدى إليك المعنى الذى تداوله الشعراء ، قال امرؤ القيس :

لمن طلل أبصرته فشجانى كخط زبور فى عسيب يمانى(٢١٣)

وقال حاتم :

أتعرف أطلالا ونؤيا مهدما كخطك فى رق كتابا منمنما(٢١٤)

وقال الهذلى :

عرفت الديار كرسم الكتا ب يزبره الكاتب الحميرى(٢١٥)

وأمثال ذلك مما لا يحصى كثرة ، ولا يخفى شهرة ، ويبين بيت لبيد ومن بينهما ما تراه من الفضل وله عليها ما نشاهد من الزيادة والشف[٢١٦] .

ولم تزل العامة والخاصة تشبه بالخدود ، والخدود بالورد نثرا ونظما وتقول فيه الشعراء فتكثر وهو من الباب الذى لا يمكن ادعاء السرقة فيه إلا بتناول زيادة تضم إليه او معنى يشفع به كقول على بن الجهم :

عشية حياتى بورد كأنه خدود أضيفت بعضهن إلى بعض(٢١٧)

---

٢١١ - يضىء سناه أو مصابيح راهب أهان السليط بالذبال المفتل
السليط : الزيت . الذبال : جمع ذبالة : وهى الفتيلة .

٢١٢ - راجع لسان العرب لابن منظور مادة زبر والعمدة لابن رشيق القيروانى جـ ١ ص ١٩٧ وشرح المعلقات للتبريزى ص ١٢٨

٢١٣ - الوساطة ص ١٨٧ .
العسيب : سعف النخل ورواية الديوان هكذا :
لمن طلل أبصرته فشجانى كخط الزبور فى العسيب اليمانى

٢١٤ - راجع شعراء الفصرانية ص ١١٨ .

٢١٥ - الوساطة ص ١٨٧ . واللسان لابن منظور مادة " دوى " وهو مروى هكذا :
عرفت الديار كخط الدو حيرة الكاتب الحميرى

٢١٦ - الشف بالفتح والكسر . الفضل والزيادة والمعروف بالكسر .

٢١٧ - الوساطة ص ١٨٧ .

obeikandl.com

فأضاف بعضهم له ، وإن أخذ فمنه يؤخذ وإليه ينتسب ، كقول ابن المعتز :

بياض فى جوانبه احمرار كما احمرت من الخجل الخدود

والخجل إنما يحمر وجنتاه ، فإما منبت الأصداغ ، ومحط الأصباغ فقليلا ما يحمران ، فهذا التمييز مسلم له ، وإن لم يكن يسبق إليه ولو اتفق له أن يقول :

حمرة فى جوانبها بياض

لكان قد طبق المفصل وأصاب الغرض ورافق شبه الخجل ، لكن أراد أن البياض والحمرة يجتمعان فجعل الاحمرار فى جوانب البياض ، فراغ عند موقع التشبيه ، ثم قال أبو سعد المخزومى :

والورد فيه كأنما أوراقه نزعت ورد مكانهن خدود

فلم يزل على ذلك التشبيه المجرد ، لكنه تامه هذا اللفظ الرشيق . فصرت إذا قسته إلى غيره ، وجدت المعنى واحدا . ثم أحسست فى نفسك عنده هزة ووجدت طربة . نقله لها أنه انفرد بفضيلة لم يتنازع فيها .

التفنن فى السرقة

وحتى لا يغرك من البيتين المتشابهين أحدهما نسيبا والآخر مديحا ، وان يكون هذا هجاء وذاك إفتخارا ، فإن الشاعر الحاذق إذا علق المعنى المختلس عدل به عن نوعه ، وصنفه ، وعن وزنه ونظمه ، وعن رويه وقافيته ، فإذا مر بالغبى الغفل وجدهما اجنبيين متباعدين ، وإذا تأملهما الفطن الذكى عرف قرابة ما بينهما والوصلة التى تجمعهما .

أريد لانسى ذكرها فكأنما تمثل لى ليلى بكل سبيل(٢١٨)

---

[٢١٨] - الديوان – الأمالى لأبى على القالى ص ١١٩ جـ ٣ .

obeikandi.com

وقال أبو نواس :

ملك قصور فى أن القلوب مثاله فكأنه لم يخل منه مكان(٢١٩)

فلم يشك عالم فى أحدهما من الآخر وأين كان الأول نسيبا والآخر مديحا .

النموذج الثانى – سرقات المتنبى

وهذا ما ادعى على أبى الطيب فيه السرقة ، وما أضيف إليه مما عثرت به ، قام أبو تمام ، وقد روى هذا البيت لبكر بن النطاح وقد دخل فى شعر أبى تمام :

ولو لم يكن فى كفه غير نفسه لجاد بها فليتق الله سائله(٢٢٠)

وقال أبو الطيب :

يأيها المجدى عليه روحه إذ ليس يأتيه لها استجداء

أحمد عفاتك لا فجعت بفقدهم فلترك ما لم يأخذوا إعطاء(٢٢١)

وبيت أبى تمام أبو بكر بن النطاح أملح لفظا وأصح سبكا .

وزاد أبو الطيب بقوله :

إنه يجدى عليه روحه . ولكن فى اللفظ قصور . والأول نهاية فى الحسن .

ثم نقل المعنى من الروح إلى الجسد فقال :

لو اشتهت لحم قاريها لبادرها خراذل منه فى السن وأوصال(٢٢٢)

وهذا هو الاول ومن جاد بأوصاله فقد جاد بروحه ، وكأنه من قول ابن الرومى :

---

٢١٩ - الديوان . ص ٣٥٩ – راجع الوساطة بين المتنبى وخصومه للجرجانى ص ٢٠٥ تحقيق وشرح محمد أبو الفضل إبراهيم . وعلى محمد البيجاوى ط : عيسى الحلبى .

٢٢٠ - الديوان ص ٢٣١ . والتبيان ص ٢٦ .

٢٢١ - الديوان ص ٢٦ جـ ١ .

٢٢٢ - الديوان ص ٢٨١ جـ ٣ .

obeikandl.com

لو حشر من جسمه لسائله أنفس أعضا لما ألما(٢٢٣)

ويقول الأعشى :

ولو أسندت ميتا إلى نحرها عاش ولم ينقل إلى قابر(٢٢٤)

وقال أبو الطيب :

فذقت ما ء حياة من مقيلها لو صاب تربا لأحيا سالف الأمم(٢٢٥)

وهذا معنى متداول بعد الأعشى ، وقد قيل فيه ما كثر .

والسرق – أيدك الله – داء قديم وعيب عميق ، وما زال الشاعر يستعين بخاطر الآخر ويستمد من قريحته ، ويعتمد على معناه ولفظه ، وكان أكثره ظاهرا كالتوارد الذى صدرنا بذكره الكلام ، وإن تجاوز ذلك قليلا فى الغوص لم يكن فيه غير اختلاف الألفاظ . ثم تسبب المحدثون إلى إخفائه بالنقل والقلب وتغيير المنهاج والترتيب ، وتكفلوا جبر ما فيه من النقيصة بالزيادة والتأكيد والتعريض فى حال ، والتصريح فى أخرى والإحتجاج والتقليل فصار أحدهم إذا أخذ معنى أضاف إليه من هذه الامور ما لا يقصر معه عن اختراعه وإبداع مثله .

وقد ادعى جرير على الفرزدق السرق فقال :

سيعلم من يكون أبوه فينا ومن عرفت قصائده إجتلابا(٢٢٦)

وادعى الفرزدق على جرير فقال :

إن استراقك يا جرير قصائدى مثل ادعائك سوى أبيك تنقل(٢٢٧)

---

٢٢٣ - الديوان ص ٢٨١ جـ ٣ .
٢٢٤ - ديوان الأعشى .
٢٢٥ - الديوان ص ٢٧ جـ ٤ .
٢٢٦ - ديوان جرير ص ٦٢ .
٢٢٧ - النقائص جـ ١ ص ١٨٩ .

obeikandl.com

ومتى أنصفت علمت أن أهل عصرنا ثم العصر الذى بعدنا أقرب فيه إلى المعذرة ، وأبعد عن المذمة ؛ لأن من تقدمنا قد استرق المعانى وسبق إليها وأتى على معظمها ، وإنما يحصل على بقايا ، إما أن تكون تركت رغبة منها واستهانة بها أو لبعد مطلبها واحتباس مرامهما وتعذر الوصول إليها ، ومتى أجهد أحدنا نفسه وأعمل فكره وأتعب خاطره وذهنه فى تحصي معنى يظنه غريبا مبتدعا ، ونظم بيت يحسبه فردا مخترعا ، ثم تصفح عنه الدواوين لم يخطئه أن يجده بعينه أو يجد له مثالا بعض من حسنه ، ولهذا السبب أحظر على نفس ولا أرى لغيرى ثبت الحكم على شاعر بالسرقة وقد أحسن أحمد بن أبى طاهر فى محاجة البحترى لما ادعى عليه من السرقة قوله :

والشعر ظهر طريق أنت راكبه فمنه منشعب أو غير منشعب(٢٢٨)

وربما ضم بين الركب منهجه وألصق الطنب العالى على الطنب

إلا أنى إذا وجدت فى شعره معانى كثيرة أجدها لغيره حكمت بأن فيها مأخوذا لا أثبته بعينه ، ومسروقا لا يتميز لى من غيره ، وإنما أقول : قال فلان كذا وقد سبقه إليه فلان فقال : كذا فاغتنم به فضيلة الصدق وأسلم من اقتحام التهور[٢٢٩] .

ونحن نميل إلى هذا الرأى الذى لا يجزم بسرقة شاعر من شاعر آخر حيث الألفاظ اللغوية مشتركة بين الجميع ، ويمتلك أزمتها كل الشعراء ، وقد يأتى الخلاف فى تناول الفكرة ، وحسن التداول ، وقد يكون هناك توارد الخواطر ، ولقاء بين الشاعرين فى الفكرة والإحساس ، وتدفق الشعور ، واتقاد الذهن ، ورهافة الحس ، ومن هذا المنطلق كان الحكم على سرقة شاعر من آخر قد يكون تجنيا وظلما ، وغمطا للحقوق ، كما أنه جور فى إستصدار الأحكام ، ولا تستبعد أن يقبس شاعر من آخر فكرة ثم يعبر عنها بأسلوبه المنبعث من ذاته لا من ذوات اللآخرين ، وربما

---

٢٢٨ - الوساطة ص ٢١٤ وما بعدها .

٢٢٩ - الوساطة ص ١١٥ .

يتوافق أن يقول الشاعر قولا ثم يأتى الآخر بطرف منه كجزء من بيت ، أو بعض الألفاظ التى وردت فى بيت من الابيات ، فربما يكون من توارد الخواطر أو من باب المحاكاة وترويض القريحة ، وذلك بان يقول فى نفس المعنى الذى تناوله ذلك الشاعر . ومن ثم يظهر الفارق واضحا جليا بين الشاعرين فى طريقة التناول للمعانى ، وحسن استخدام الألفاظ ، وجلال المعنى . ومن هنا كان احتجاج " أحمد بن أبى طاهر " على " البحترى " لما ادعى عليه السرقة فى قوله :

والشعر ظهر طريق أنت راكبه فمنه منشعب أو غير منشعب
وربما ضم بين الركب منهجه وألصق الطنب العالى على الطنب

وهذا ما ادعى على أبى الطيب المتنبى فيه السرقة .
قال أبو تمام :وقد روى هذا البيت لبكر بن النطاح وقد دخل فى شعر أبى تمام

ولو لم يكن فى كفه غير نفسه لجساد بها فليتق الله سائله

قال أبو الطيب المتنبى :

يأيها المجدى عليه روحه إذ ليس يأتيه لها استجداء(٢٣٠)
أحمد عفاتك لا فجعت بفقدهم فلترك ما لم يأخذوا إعطاء

وبيت أبى تمام أو بكر بن النطاح أملح لفظا ، وزاد أبو الطيب :
" إنه يجدى عليه روحه " ولكن فى اللفظ قصور والأول نهاية فى الحسن .
وقول الأعشى :

ولو أسندت ميتا إلى نحرها عاش ولم ينقل إلى قابر(٢٣١)

وقال المتنبى :

---

٢٣٠ - راجع الديوان ٢٦/ ١ .
٢٣١ - ديوان الأعشى .

فذقت ماء حيـــاة من مقبلهـــا لو صاب تربا لأحيا سالف الأمم(٢٣٢)

ولعلك تلاحظ الفارق بين المعنيين ، وتناول الشاعرين المعنى فإنـك واجـد اختلافا فى طريقة التناول ، وتحلية المعنى . فالأعشى يقول : إنها جميلة فاتنة غضة بضة طريئة ناعمة بحيث لو أسندت ميتا إلى نحرها لعادت إليه الحياة ولم ينقل إلـى مقبرة . ولا ريب أنها مبالغة فى وصف الجمال ، والافتنان به وتناول المعنى نفسـه " المتنبى " فتراه يقول :

فذقت رضابها وهو ماء حياة لو أنه أصاب تربا لأحيا الراحلين من الأمـوات فى سالف الزمن . وتلك فكرة فلسفية تلك التى تناولها " المعترى " فى قوله :

خف الوطء فما أظن أديم الأرض إلا من هذه الأجساد(٢٣٣)

والمدقق فى بيت " المتنبى " – يجده أقوى لفظا ، وأجود معنى ، وأمتن نسجا وأحسن رونقا وبهاء ، وذلك لما اشتمل عليه من وضوح وعذوبة ، وسلامة ورقـة وجمال .

---

٢٣٢ - راجع الديوان ٣٧/ ٤ .
٢٣٣ - راجع الديوان .

obeikandl.com